

مراتب وجود القرآن عند علماء المسلمين

دراسة في الحقيقة والمعنى واللفظ

السيد حسين علي إبراهيم

الجامعة الإسلامية / بيروت - لبنان

فحوى البحث

كانت مجلة المصباح قد نشرت في عدد سابق حول هذا الموضوع بحثاً يتحدث عن رأي المعتزلة والأشاعرة في مسألة خلق القرآن وقدمه. وهانحن اولاء ننشر بحثاً آخر مشابهاً، للسيد الباحث حسين علي إبراهيم، فيه توسع في مجال عرض هذه المسألة المهمة اذ انه أخذها من وجهة نظر كل علماء المسلمين بمن فيهم المعتزلة والأشاعرة. فقام ببسط ارائهم ثم نقدها بطريقة علمية رصينة برغم صعوبة عرض هذه الفكرة بتوسع وفي ورقات قليلة، ذلك أن الباحث في القرآن - حقيقةً ولفظاً ومعنىً - لا بد أن يحيط بكل مراتب وجوده المدعاة واحدة واحدة محاولاً عقد مقارنة علمية بينها مع دراسة مكان احتوائها على المفاهيم وعلى الألفاظ. وقد وُفق الباحث في ذلك الى حد أنه أوفى العنوان مفهومه.

مراتب وجود القرآن عند علماء المسلمين

المقدمة

مقدمة:

إنَّ موضوع هذا البحث مرتقى صعبٌ ومطلب بعيد، وإنَّ الباحث في القرآن حقيقةً ومعنىً ولفظاً، لا بدَّ أن يعرَّض لمراتب وجوده المدعاة كلّها، وأن يفحصها واحدةً واحدة، محاولاً مقارنة كلٍّ منها ودارساً إمكان احتوائها على المعاني الذهنية (المفاهيم)، وعلى الألفاظ.

وقد أجمع المسلمون على أنَّ القرآن كلام الله - تعالى - واختلفوا في كونه مخلوقاً أو غير مخلوق، قديماً أو غير قديم، ثمَّ اختلف القائلون بعدم الخلق في كون كلام الله علم الله - تعالى - أم كلاماً نفسياً وصفةً أزليّة قائمة بذاتها.

ولازم هذه الأقوال ادّعاء وجود القرآن قبل رتبة وجوده في اللوح المحفوظ، هو علم الله عند بعض، أو الكلام النفسي عند آخرين. وتفرَّع على هذه المسألة نقاشٌ بين بعض الحنابلة والحشوية وغيرهم في كون القرآن المقروء المتلو، والمخطوط المكتوب، مخلوقاً أم غير مخلوق! وهو نقاشٌ فرعيٌّ لا يدخل في هذه المرتبة. واتفق المسلمون على وجود القرآن في

اللوحة المحفوظ؛ لورود ذلك صراحةً في القرآن الكريم: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿٣١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [سورة البروج: ٢١-٢٢]. ولكن حقيقة وجود القرآن في اللوح هل هي وجوده في علم الله وقضائه، وفي مخزن اللوح المحفوظ الذي هو مخزن علمه وقضائه؟ أم له مع علم الله به وقضائه إيّاه وجود خارجيٌّ ملكوتيٌّ محدث هو الحقيقة القرآنية المودعة في اللوح المحفوظ، وهي تأويل القرآن الذي يرجع إليه مثاله المقرّر المتلوّ الملفوظ بالسنتنا والمكتوب في المصاحف؟ وهل تقبل هذه المرتبة المدعاة من الوجود مفاهيم ذهنية وألفاظاً؟

أولاً: دعوى أنَّ القرآن غير مخلوق، أو أنَّه كلامٌ نفسي لله:

هناك وجود مدعى للقرآن قبل مرتبة وجوده في اللوح المحفوظ قال به كثيرٌ من المحدثين والمتكلمين السُنَّة، وهو وجودٌ يحيط بكل رتبة وجود أخرى ويكون في طولها ويكون معها. وهذا يكون بادعاء أنَّ القرآن غير مخلوق، أو بادعاء كلام نفسي لله سبحانه. وليس كل من قال: إنَّ القرآن غير مخلوق قائل بالكلام النفسي، بل كل

قائل بالثاني قائل بالأوّل، ولا عكس.

وهذا يقتضي فصل العنوانين عند التحليل، ونبدأ بالأوّل:

١. دعوى أنّ القرآن غير مخلوق:

أ. ظروف ظهور الدعوى:

قلنا في المقدّمة إنّ المسلمين اجتمعوا على أنّ الله متكلم وأنّ القرآن كلامه، ولكنهم اختلفوا في كلامه أنّه مخلوق أو غير مخلوق. وأوصلهم اختلافهم إلى ما عُرف في عصر المأمون العبّاسي (ت: ٢١٨هـ) وما بعده بمحنة خلق القرآن. وكان قد شاع في أوساط المحدثين السُنّة القول: إنّ القرآن غير مخلوق. وهذا إن ارتبط من ناحية بالعقلية التي تعامل بها المحدثون مع النصوص الدينية، فإنّه ارتبط -أيضاً- في زعم بعض الباحثين بمؤثرات حضارية وافدة ترجع إلى امتزاج المسلمين ببيئة البحث الكلامي عند أهل الكتاب؛ حيث

قالت اليهود بقدّم التوراة وقالت النصارى بقدّم الكلمة (المسيح)^(١). وهناك من ربط

(١) راجع: السبحاني، جعفر (شيخ): بحوث في الملل والنحل (دراسة موضوعية مقارنة للمذاهب الإسلامية)، ط٢، الدار الإسلامية، بيروت، ١٤١١ هـ / ١٩٩١ م، ٢: ٢٥٣.

بين النصارى الذين كانوا في حاشية الأمويين، وعلى رأسهم يوحنا الدمشقي، وبين هذه المسألة؛ فقد كان الأخير يجادل المسلمين في قدم الكلمة في القرآن، «فإن قالوا: لا، فقد قالوا: إنّ كلامه مخلوق، وإن قالوا: قديمة، ادّعى أنّ عيسى قديم»^(٢). هذا مع الإشارة إلى أنّ عيسى -على بعض وجوه التفسير الراجحة- وسائر الخلق كلمات الله التكوينية.

ولعلّ أوّل من بدأ القول بعدم خلق القرآن هو عبد الله بن محمد بن كُلاب، وكان يقول إنّ كلام الله هو الله، وكانت الكُلابيّة التي تُنسب إليه تقول: إنّ كلام الله -تعالى- هو معنى أزليّ قائم بذاته مع أنّه شيءٌ واحد^(٣). وقد زعم أبو العبّاس البغوي: أنّ فثيون النصراني قال له: «رحم الله عبد الله [أي: ابن كُلاب] كان يجيء ويجلس إلى ناحية من البيعة، وعني

(٢) راجع: م. ن، ص. ن وما بعدها، و٣: ٢٦٠ (نقله عن: أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ٢: ٣٩٤).

(٣) راجع: م. ن، ٣: ٣٦٠؛ وراجع أيضاً: موسى، جلال عبد الحميد (د.): نشأة الأشعرية وتطورها، لا ط، بيروت، ١٩٨٢ م، ص ٢٤٧.

مراتب وجود القرآن عند علماء المسلمين..... البصائر

أخذ هذا القول: «كلام الله هو الله»^(٤). ويرى بعض الباحثين أن قول ابن كلاب بقدوم القرآن أو قول ابن حنبل بأنه غير مخلوق، جاء بعد قول الجعد بن درهم والجهم بن صفوان بأنه مخلوق^(٥). وعلى كل حال، فالحوض في أن القرآن مخلوق أو غير مخلوق كان - في جزء منه - راجعاً للأسباب السالفة.

وقد ساعد في انتشار عقيدة خلق القرآن ما لقيه أصحابها من ظلم على يد المأمون (ت: ٢١٨هـ)، والمعتمد (ت: ٢٢٦هـ)، والواثق (ت: ٢٣٢هـ) الذين نصرُوا عقيدة الاعتزال بشدة، وقد سجّل المعتزلة باستنصارهم بالسلطة على مخالفيهم صفحة سوداء في تاريخهم الداعي إلى حرية الفكر الإنساني^(٦)، وقد ردّ مناوئوهم - فيما بعد - الكيل كيلين^(٧).

وقد استدلل القائلون بأن القرآن غير مخلوق بعدد من الأدلة النقلية وغيرها على مدّعاهم، نقدها خصومهم وأجابوا عنها. ولكن الذي شدّ النظر محاولة نسبة حديث إلى رسول الله ﷺ في خلق القرآن؛ فقد ذكر التفتازاني في شرح العقائد أنه اختار عبارة غير مخلوق مكان عبارة حادث لموافقة حديث النبي ﷺ: «القرآن كلام الله - تعالى - غير مخلوق». وردّ عليه الشيخ عبد الله الهرري الحبشي بأن «هذا الحديث لا يصح مرفوعاً، إنَّما هو كلام لبعض الأئمة كأبي حنيفة رحمته الله وغيره^(٨) من السلف»^(٩).

كما يلفت ادّعاء مواقف للصحابة أو تأويل كلام وصرف معناه إلى أن القرآن غير مخلوق، والمسألة بدأت جذورها في العصر الأموي؛ فقد روي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال يوم صفين: «ما حكمتُ مخلوقاً، وإنَّما

(٨) سيأتي أن أبا حنيفة قال بخلق القرآن أو روي عنه ذلك، وروي عنه التراجع عنه، وهذا يناسب ما روي في التراجع.

(٩) الهرري الحبشي، عبد الله (شيخ): المطالب الوفيّة في شرح العقيدة النسفيّة، ط ٢، دار المشاريع، بيروت، ١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م، ص ٧٥.

(٤) ابن النديم: الفهرست، تحق: مصطفى محمد، القاهرة، ١٣٤٨ هـ، ص ٢٣٠.

(٥) راجع: موسى، م، س، ٢٥١.

(٦) راجع: موسى، م. س، ص ٢٤٧؛ وراجع، رسائل المأمون الأربع في شأن خلق القرآن وما جرى على المحدثين في: السبحاني، م. ن، ٣: ٤٢٢-٤٣٧.

(٧) راجع: م. ن، ٣: ٤٣٨-٤٤٩.

حَكَّمْتُ الْقُرْآنَ^(١٠). والظاهر أَنَّ كلمة مخلوق في هذا السياق تعني أنني ما حكمتُ بشراً أو إنساناً، وإنما حَكَّمْتُ كلام الله، والدلالة الأخرى التي تفيد أَنَّ القرآن غير مخلوق بقرينة المقابلة دلالة احتمالية. لكن بعض الكلام المنقول عن بعض الصحابة كلام ظاهر أو صريح، ويمكن احتمال صدوره من بعض الصحابة الذين امتدَّت أعمارهم إلى فترة سمحت ب بروز هذا النقاش في العصر الأموي^(١١).

ب. مواقف الحنابلة من عدم خلق القرآن: لعلَّ أشهر من قال: إِنَّ القرآن غير مخلوق أحمد بن حنبل (ت: ٢٤١ هـ)، وقد

(١٠) اللاكاثي، أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الشافعي (ت: ٤٨٠ هـ): شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم)، خرَّج آياته وأحاديثه ووضع فهرسه محمد عبد السلام شاهين، ط١، دار الكتب العلمية (منشورات محمد علي بيضون)، بيروت، ١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م، ١: ١٣٥.

(١١) راجع ما روي عن ابن عمر، وما نُقل من آراء بعض الصحابة، وامتنع بهذه الضابطة التحليلية في اللاكاثي، م. ن، ١: ١٣٦-١٣٧.

عانى في سبيل عقيدته -خصوصاً في أيام المأمون، لكن العلماء اختلفوا في حدود قوله، فابن حزم ينقل أَنَّ قوله وقول أهل السنة^(١٢): «إِنَّ كلام الله -تعالى- هو علمه لم يزل، وهو غير مخلوق»^(١٣). والخلاف مع الحنابلة والأشاعرة الذين سيأتي قولهم، هو في أَنَّ كلام الله -سبحانه- صفة ذات أم صفة فعل، فإن كان صفة ذات لا يكون مخلوقاً، وإن كان صفة فعل يكون كذلك. وابن حنبل عدَّه علم الله لم يزل وصفة قائمة بالله، وبها أَنَّ القرآن كلامه، فالقرآن غير مخلوق، وقد نُقل عنه في كتاب الرد على الجهمية: لا يقال في كتاب الله هو الله ولا غيره^(١٤).

ولا يُعترض على كون الله عالماً بكل شيء، ولكن الاعتراض على جعل كلام

(١٢) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد الأندلسي الظاهري (ت: ٤٥٦ هـ): الفصل في الملل والأهواء والنحل، وضع حواشيه: أحمد شمس الدين، ط٢، دار الكتب العلمية (منشورات محمد علي بيضون)، بيروت، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م، ص ٣٧.

(١٣) راجع: الهري الحشبي، شرح الطحاوية، م. س، ص ٩٠.

(١٤) راجع: م. ن، ص. ن.

مراتب وجود القرآن عند علماء المسلمين..... البصائر

بالقرآن مخلوق يريد به أن القرآن أو أنه مخلوق فهو كافر».

وروي عنه أن اللفظ مُحَدَّث قال الله - تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ﴾ [سورة القيامة: ١٨]، ولم يقل: فإذا لفظناه، وقال - تعالى: مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ [سورة ق: ١٨]، فاللفظ كلام الآدميين. روي عنه أنه قال في خلوة: "القرآن كيف تصرّف غير مخلوق، فأما أفعالنا فمخلوقة" (١٧).

وقد حاول بعض الباحثين الجمع بين هذه النقول لفهم أن ابن حنبل كان يرى أن اللفظ مُحَدَّث، ولكنه كره إطلاق القول بأن قراءة القرآن وألفاظ القراءة به [مخلوقة]؛ لما في ذلك من الإيهام بأن القرآن بمثابة الكسوة للمقروء، «فمن قال إنها مخلوقة وقصد بها المقروء فهو مبتدع، ومن لم يقصد به القرآن فيكره إطلاقه» (١٨). ومذهب أبو زهرة في كتابه: أحمد بن حنبل: بعد عرض أقوال ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وأقوال ابن الجوزي، إلى أن رأي ابن حنبل في

الله علمه لم يزل؛ فالكلام من صفات فعل الله، وفعله يحيط به علمه، أمّا أن يكون فعله علمه أو عين علمه، فالدليل عليه لا له.

لكن موقف أحمد بن حنبل لم يقف عند القول بأن كلامه غير مخلوق، وتفسيره بأنّه علمه لم يزل، بل نُقل عنه ما يفيد أن لفظ القرآن غير مخلوق أيضاً. وقد قال هو في كتاب السنّة: «والقرآن كلام الله ليس بمخلوق، فمن زعم أن القرآن مخلوق فهو جهمي» (١٥) كافر، ومن زعم أن القرآن كلام الله - عزّ وجل - ووقف، ولم يقل مخلوق ولا غير مخلوق، فهو أخبث من الأوّل، ومن زعم أن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة وتلاوتنا له مخلوقة، والقرآن كلام الله، فهو جهمي، ومن لم يكفر هؤلاء القوم كلهم فهو مثلهم... ولم يزل الله متكلماً عالماً» (١٦).

وقد اختلف النقل عن ابن حنبل في لفظ القرآن، فروي عنه: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو كافر» وهو قول مطلق، ربّما يقيده نقل آخر عنه: «من قال: لفظي

(١٧) راجع في هذه النقول عن ابن حنبل: المهري الحبشي، شرح الطحاوية، م. س، ص ٩٠ - ٩١.
(١٨) م. ن، ص ٩١.

(١٥) يقصد: من أتباع الجهم بن صفوان.
(١٦) ابن حنبل، أحمد (ت: ٢٤١ هـ)، كتاب السنّة، دار العلمية، بيروت، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٤ م، ص ٤٩.

المسألة هو أن «القرآن بمعنى تلاوته محدث وليس بقديم؛ وذلك لأن القراءة وصف للقارئ لا لله» (١٩).

وما يقرب أن ابن حنبل كان يرى أن اللفظ بالقرآن محدث أنه أجاب من سألته عما كان فيه مع القوم (ويراد المعتزلة أو رجال المأمون الذين يؤيدونهم) وبأي كانوا يحتجون عليه: فقال بأشياء من القرآن منها قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢]، قال: قلت يحتمل أن يكون تنزيله إلينا هو المحدث لا الذكر نفسه".

ويقرر ابن تيمية (ت: ٧٦٨ هـ) أن القرآن -بمعنى التلاوة والقراءة- ليس قديماً عند ابن حنبل (٢٠)، بل هو ينسب إلى السلف أنه كما لم يقل أحد منهم إن القرآن مخلوق، لم يقل أحد منهم إنه قديم (٢١).

ولكن التفريق بين عدم الخلق وبين

(١٩) أبو زهرة، أحمد بن حنبل، القاهرة، ١٣٦٧ هـ، ص ١٣٢ (نقلناها عن موسى، م. س. ٢٥٤).

(٢٠) الهري الحشبي، شرح الطحاوية، ص ٩٠. (٢١) راجع بوسى، م. س، ص: ٢٥٤.

القديم كالتفريق بين المترادفين؛ لأن الشيء إذا لم يكن مخلوقاً يكون وجوده لذاته، وما كان كذلك لا يكون مسبوقاً بالعدم، فيكون قديماً. هذا فضلاً عن أن ابن الجوزي صرح بأن الأئمة المعتمد عليهم قالوا: إن القرآن كلام الله قديم.

ولكن جلال موسى ينقل عن ابن تيمية محاولة -لا يثبت مصدرها- قد تقرب المسافة -في حال دقتها- في هذه المسألة؛ «فابن حنبل لا يعتبر أن كل ما يقوم بالذات العلية قديم بقدمها. إذ كل ما فعله الله بإرادته قائم به عنده، ومنها ما هو حادث، بل كل ما يقوم بالإرادة القديمة حادث، فالإرادة قديمة والمراد حادث. وقد كان ابن حنبل دقيقاً حين قال: إن القرآن كلام الله غير مخلوق.

فهل أريد في هذا النقل أن فعل الله حادث، ولكن علمه بفعله وإرادته قديمان، فإن هذا يقرب الشقة جداً -إن كان هو المقصود-، ويبقى بحث أن الكلام هو فعل الله أو علمه، ودعوى أن الكلام صفة قائمة بالله، وليست صفة فعلية.

وابن تيمية صرح بحديث القرآن

مراتب وجود القرآن عند علماء المسلمين..... **البصائر**

بالكينونة، ولا يكون ذلك إلا فرداً وهو
حادث قطعاً حسب ما اعترف به»^(٢٤).

وينسب الذهبي إلى جماهير المتكلمين
أنهم يقولون: «القائم بالذات المقدس
غير مخلوق؛ لأنه من علمه تعالى، والمنزل
إلينا محدث، كما قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ
ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ
يَلْعَبُونَ﴾»^(٢٥) [سورة الأنبياء: ٢].

ولكن اختلاف النقل عن ابن حنبل،
وتشوش الحال، وغلبة أجواء التعصب
للآراء حملت فريقاً من الحنابلة على الغلو
في هذا الأمر وادّعاء أن لفظ القرآن
مخلوق. ونقل عبد الرحمن بدوي أن
الحشوية النوابت من الحنابلة ذهبت إلى أن
هذا القرآن المتلو في المحارب، والمكتوب
في المصاحف غير مخلوق ولا محدث، بل
قديم مع الله تعالى»^(٢٦). ونقل الهري

(٢٤) م. ن، ٣: ٣٦٤ (لاحظ ابن تيمية، مجموعة
الفتاوى، ٣: ٤٥).

(٢٥) الهري الحبشي، شرح الطحاوية، م. س،
ص: ٩٧.

(٢٦) بدوي عبد الرحمن (د.): مذاهب الإسلاميين
(المعتزلة والأشاعرة والإسماعيلية والقرامطة
والنصرية)، ١، دار العلم للملايين،
بيروت، ١٩٩٦ م / إعادة طبع ١٩٩٧ م،
ص: ١٦٥.

المقروء وحدوث قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا
الْمُرْمَلُ﴾ [سورة المزمل: ١] و ﴿يَأْتِيهَا
الْمُدِيرُ﴾ [سورة المدثر: ١]، وقوله: ﴿قَدْ
سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [سورة
المجادلة: ١]... إلى غير ذلك من الآيات
الدالة على حدوث النداء والسمع من حينه
لا من الأزل^(٢٢).

ولكنه عاد ليزلق في قوله بقديم جنس
حروف المعجم حين قال: «وما تكلم الله
به فهو قائم به، ليس مخلوقاً منفصلاً عنه،
فلا تكون الحروف التي هي مباني أسماء
الله وكتبه المنزلة مخلوقة، فقول القائل بأن
الحروف قديمة، أو حروف المعجم قديمة،
فإن أراد جنسها، فهذا صحيح، وإن أراد
الحرف المعين، فقد أخطأ»^(٢٣). ويعلق
السبحاني على هذا القول ذاكرة أنه يشبه
القول بقديم الماهيات المنفكة عن الوجود.

وهذه الحروف بجنسها، كما أن الماهيات
بنوعها ليست إلا مفاهيم لا موجودة ولا
معدومة وإنما (تتشخص لوجود)، وتتحقق

(٢٢) السبحاني، م. س، ٢: ٢٥٩ (لاحظ مجموعة
الفتاوى ٣: ٩٧).

(٢٣) م. ن، ٣: ٣٦٤ (لاحظ ابن تيمية، مجموعة
الفتاوى، ٣: ٤٥).

الحبشي أَنَّ الحشويَّة القائِلين بأنَّه يتكلَّم بحرفٍ وصوت قائم بذاته، وهم قسمان: قسم يلتزمون حلول الحوادث بذاته، وشرذمة يقولون: الحروف والأصوات قديمة، وقال الهرري عنهم إنَّهم لا يفهمون ما يقولون؛ لأنَّا نعلم ضرورةً وحسًّا بأنَّ الكاف قبل النون ولا يجتمعان في زمن واحد، ثمَّ يلزمهم ما لزم النصاري في اعتقادهم أنَّ صفةً من صفات الله القديمة وُجِدَت بالمسيح... (٢٧).

ونقل جلال موسى أنَّ الحشويَّة المجسَّمة قالت «إِنَّ الحروف المقطَّعة والأجسام التي يُكتب عليها والألوان التي يُكتب بها وما بين الدفتين كلها قديمة» (٢٨)، فعاد الورق والجلد والحبر، بل حتى الغلاف قديماً عندهم (٢٩).

ج. مواقف الظاهريَّة من عدم خلق القرآن: أمَّا الظاهريَّة، فننقل عن رأسها داود الظاهري أنَّ القرآن محدث وليس

(٢٧) راجع: الهرري الحبشي، شرح الطحاوية، م. س، ص ٩٤.

(٢٨) موسى، م. س، ص: ٢٥٣.

(٢٩) راجع: السبحاني، م. س، ٢: ٢٤٣ (عن المواقف ٢٩٣).

بمخلوق، وأنَّ ابن حنبل هجره عندما بلغه ذلك عنه (٣٠)، لكن إحدى أبرز شخصيَّاتها، وهي ابن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ) ذهب إلى أنَّ كلام الله هو علمه لم يزل وهو غير مخلوق. وهو عرض للقرآن خمسة يطلق عليها كلام الله - تعالى - حقيقةً؛ فلفظ القرآن معنى مشترك يُعبَّر عن:

١. ج: الصوت المسموع المفوظ به: ﴿...حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة: ٦]، ﴿فَاقْرَأْ مَا تَنَسَّرَ مِنْ الْقُرْآنِ﴾ [سورة المزمل: ٢٠].

٢. ج: المفهوم من الصوت؛ فإذا فسرنا الزكاة المذكورة في القرآن والصَّلَاة والحج وغير ذلك قلنا في كلِّ هذا: هذا كلام الله.

٣. ج: المصحف ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٧) ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ﴾ (٧٨) ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (٣١) [سورة الواقعة: ٧٧-٧٩]، ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾

(٣٠) راجع: الهرري الحبشي، شرح الطحاوية، ٩٦. (٣١) (في دلالة الآيتين على محل الشاهد خلاف؛ فربَّما يقال إنَّه الكتاب المكنون في اللوح المحفوظ وليس الكتاب في وجوده المكتوب في العالم المشهود).

مراتب وجود القرآن عند علماء المسلمين..... **البصائر**

لما جزم بأن كلام الله هو علمه. ولكن الإشكال-كما تقدّم- هو في هذا الأخير نفسه.

وكان ابن حزم شديداً على الأشاعرة لعدم قولهم بأن النازل مع جبرائيل عليه السلام هو كلام الله بل هو عبارة عنه -كما سيأتي- فقال: وهذا كفر مجرد بلا تأويل. وهذا يشير إلى التوتر الشديد والنفس التكفيرية الذي أحاط بطرح هذه المسألة^(٣٤).

د. آراء بعض أصحاب المذاهب الأربعة الآخرين^(٣٥):

وعن أصحاب المذاهب الأربعة غير ابن حنبل نُقلت أخبار متعددة عن الشافعي مؤدّها أنها يقول: إنّ القرآن غير مخلوق^(٣٦). واختلف في النقل عن أبي حنيفة، فروي عنه أنّه يقول بخلق القرآن، وعلّله بعض الباحثين بأنّه قال به لمعاصرتة للجعد بن درهم والجهم بن صفوان، وأنّه كان قبل ظهور القول بقدّم القرآن مع ابن كلاب، وبأنّه غير مخلوق مع

﴿فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ﴾ [سورة البينة: ٣-٢].

٤. ج: المستقر في الصدور ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْنَتُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٩].

٥. ج: كلام الله -تعالى- وهو علمه، وليس هو شيئاً غير الباري -تعالى- ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة يونس: ١٩].

ولكن لما كان اسم القرآن واقعاً على خمسة أشياء وقوعاً مستويّاً صحيحاً، منها أربعة مخلوقة وواحد غير مخلوق، لم يجوز لأحد البتة أن يقول: القرآن مخلوق، ولا أن يقول: إنّ كلام الله -تعالى- مخلوق... وأمّا من أفرد السؤال عن الصوت، وحروف الهجاء، والخبر، فكل ذلك مخلوق بلا شك^(٣٣).

وإذا كنّا قد نقلنا -سابقاً- عن ابن حنبل أنّه «لا يقال في كتاب الله هو الله ولا غيره». فاللافت أنّ ابن حزم خالف في هذا إلى القول بأنّه هو الله موافقاً للكلاية

(٣٤) راجع: م. ن، ٢: ٣٨.
(٣٥) راجع: المهري الحشبي، شرح الطحاوية، م. س، ص: ١٠٣-١١١.
(٣٦) راجع: موسى، م. س، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٣٢) (راجع: ابن حزم، م. س، ٢: ٣٧/
٣٩-٤١).
(٣٣) م. ن، ٢: ٤٢-٤٣.

ابن حنبل، وأنه رجع عن قوله على ما في الروايات^(٣٧). وقد قال أبو حنيفة في الفقه الأكبر: «والقرآن كلام الله - تعالى - في المصاحف مكتوب، وفي القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبي ﷺ منزل، ولفظنا بالقرآن مخلوق، وكتابتنا له مخلوقة، وقراءتنا له مخلوقة، والقرآن غير مخلوق». وهو قول صريح منه بأن القرآن غير مخلوق.

وفتوى أبي حنيفة بعدم انعقاد الحلف بالقرآن، حملها الأشاعرة على أنه قصد الألفاظ ولم يقصد الكلام القديم القائم بالذات المقدس، ولعل لها محملاً آخر على قوله المروي الآخر - وربما السابق - وهو أنه يقول: إن الكلام محدث. وقد زعم ابن تيمية أنه لم يقل أحد من الفقهاء الأربعة بأن القرآن مخلوق أو قديم^(٣٨).

هـ. إشارة سريعة إلى قول الأشاعرة في عدم الخلق:

وقال أبو الحسن الأشعري ومن ورائه

(٣٧) راجع: الهرري الحبشي، شرح الطحاوية، م. س، ص ٩٥.

(٣٨) راجع: الهرري الحبشي، شرح النسفية، م. س، ص ٨٢.

الأشاعرة: «إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وإن من قال بخلق القرآن فهو كافر»^(٣٩). ولكن الأشاعرة قالوا مع ذلك بحدوث القرآن المتلو المقروء، والمكتوب الموجود في المصاحف، وقالوا بنظرية الكلام النفساني لله تعالى، وهو ما ستُخصَّص له النقطة الآتية. و. إشارة إلى رفض المعتزلة لعدم خلق القرآن:

أما المعتزلة فقالت بخلق القرآن؛ فحقيقة كلامه أصوات وحروف ليست قائمة بذاته - تعالى - بل يخلقها - سبحانه - في غيره، كاللوح المحفوظ، أو جبرائيل، أو النبي، فمعنى كونه متكلاً كونه موجدًا للكلام، وليس من شرط الفاعل أن يحل عليه الفعل.

وإذا كانت حقيقة القرآن هي الكلام المتلو غير القائم بذاته - تعالى، فحدوثه أمر واضح، بل إن الأكثر عدا الحشوية وغلاة الحنابلة والمحدثين موافقون على أن القرآن المتلو محدث، وإن كرهوا إطلاق ذلك، لثلاً

(٣٩) الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل: الإبانة عن أصول الديانة، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٩٧٥ م، ص ٢١.

يُفهم منه أنَّ الكلام القديم أو غير المخلوق القائم بالذات المقدَّس محدث.

ويقول القاضي عبد الجبار إنَّ الكلام هو الحروف المنظومة التي تظهر بالأصوات المقطَّعة، وليس حدوث هذا بحاجةٍ إلى دليل، ولو احتاج مثل هذا إلى دليل، إذًا لا احتاج النهار إلى دليل، كيف؟. وإنَّ ترتيب حروف الكلمات والجُمْل يستلزم الحدوث... فالحدوث ثمَّ الانعدام لا يفارقان مفردات الحروف (٤٠).

وتركيز القاضي عبد الجبار على حدوث الحروف والأصوات، إشارة إلى أنَّ حقيقة القرآن عند المعتزلة هي المتلَو، وأنَّه كلام الله، وأنَّ كلام الله فعل صدر منه وأوجده، فليس كلامه علمه أو إرادته.

لعلَّ هذا الكلام يصيب موضع النزاع مع أكثر القائلين بأنَّ القرآن غير مخلوق بالإشارة فقط، لا بالمباشرة؛ فأكثر هؤلاء ما خلا غلاة الخنابلة والمحدثين والحشوية، على أنَّ المتلَو مخلوق، وهم ينازعون في شيء

(٤٠) راجع: القاضي عبد الجبار الهمداني الأسد آبادي (ت: ٤١٥ هـ) شرح الأصول الخمسة، تحق: د. عبد الكريم عثمان، مصر، ١٣٨٤ هـ، ص ٥٢٨.

آخر، وهو أنَّ الله كلاماً آخر غير مخلوق أو قديماً قائماً في ذاته وهو علمه، أو هو صفة أزلية قائمة في ذاتها هو غيره عند بعض، أو علمه - كما رأينا مع ابن حزم - هي الكلام النفسي عند الأشاعرة. ولكن كون القاضي في مقام البيان، يفهمُ معه المرء من كلامه نفي وجود كلام نفسي، أو لكلام قائم بالذات هو علم الله نفسه، وذلك لتصريحه بأنَّه فعل لله وليس صفة قائمة فيه، بل هو خالق له وموجد. وهذا يقبله الأشاعرة في هذه المرحلة التي تحدَّث عنها القاضي عبد الجبار، لا فيما قبلها، وهم يحتاطون في إطلاق المقروء المتلَو على القرآن في هذه المرتبة، فيقولون القراءة والتلاوة.

أمَّا أئمة أهل البيت (عليهم السلام) وعلماء الإمامية فقد رفضوا في العصور الأولى الخوض في هذه الفتنة التي جرَّت ذيلها بين المسلمين تكفيراً واستحلالاً للدماء واستعانة بضغط السلطة الحاكمة. فلا تُدخل رأيهم فيها هنا. وسنورد في تعليقنا على المسألة بعد اكتمال شقِّ الكلام النفسي شيئاً في طريقتهم في علاج هذه القضية.

وبعد، فقد كان غرضنا من علاج هذه



النقطة بحث وجود القرآن قبل مرحلة اللوح المحفوظ، ووجدنا دعويين: الأولى: أن القرآن كلامه - تعالى - وكلامه صفة قائمة فيه، وهو علمه عند البعض وقد فصلناها هنا، من دون الخوض التفصيلي في أدلة أصحابها وأدلة مخالفيهم؛ لعدم تعلّق الغرض بهذا الخوض، والثانية أن القرآن كلامه النفسي وهي الدعوى الثانية التي نزدلف إلى تحليلها.

ولأنّ الغرض اكتناه وجود القرآن قبل مرحلة اللوح، حيث لا لفظ ولا جسم ولا عرض، كان بحث الأقوال التي تدعي أن التلاوة والكتابة غير مخلوقة... بحثاً هامشياً في هذه النقطة، ولكنه بحث لا يكاد ينفك في تاريخ علم الكلام عن هذا الموضوع. ثم إنّ تمييز رأي من يقول بقديم القرآن أو عدم خلقه؛ لأنه صفة قائمة بالذات المقدسة، هي غيره أو هي علمه، مع القول بالخلق التلاوة والكتابة، من رأي من يقول بالقدم أو عدم الخلق في كل ذلك لا يحصل إلا بالتحليل المفصل.. وهذا ما سلف.

أمّا الحكم على كون علم الله - تعالى -

كلاماً إلهياً وقرآناً، وليس أن الله عالم بالقرآن وبكلامه المحدث، فمؤجّل إلى ما بعد الشقّ اللاحق؛ لينظر في الدعويين معاً. ٢. دعوى وجود الكلام النفسي:

لعلّ بحث هذه الدعوى مقدّم في بعض الكتب على بحث عدم خلق القرآن؛ لأنّ إثبات الكلام لله مقدّم على البحث في خلقه أو عدم خلقه، والقرآن كلامه سبحانه. ولكننا أخرنا هذه الدعوى لأمرين: أولهما رعاية السياق التاريخي بتقدم بحث عدم خلق القرآن على نشوء مسألة الكلام النفسي، وثانيهما أنّنا عرضنا للكلام ولكون القرآن كلاماً لله في المسألة السابقة، ونحن نخصّ البحث - هنا - بالكلام النفسي.

ومذهب أبي الحسن الأشعري ومذهب وسطى حاول أن يخرج من قلب المحنة الشديدة بين المحدثين والمعتزلة، بمحاولة التلفيق بين ظواهر النصوص - ولو بالجمود عليها أحياناً - مع عدم ترك الاستدلال بالعقل. وبصرف النظر عن مدى التوفيق الذي أصابه، ولكنه خرج بآرائه من رحم تلك المعاناة بعد تركه

مراتب وجود القرآن عند علماء المسلمين..... البصيرة

الاعتزال واختلاؤه للبحث^(٤١). ومسألة الكلام النفسي مثال على هذا السبيل.

أ. غياب نظرية الكلام النفسي عن كتب الأشعري:

من الغريب أنَّ نظرية الكلام النفسي التي هي ركيزة أساسية في عقيدة الأشاعرة، لم توضع في كتب الأشعري كـ «الإبانة» و «اللمع»، بل إن عبارة وردت في كتاب الإبانة دفعت بعض الباحثين إلى نسبة الصمت إلى الأشعري في الإجابة عن سؤال: ما هو القديم في القرآن: ألفاظه ومعانيه، أم المعاني والمدلولات فقط؟ وذلك بعد تحليل عبارة قبلية في كتاب الإبانة هي: «لا يجوز أن يقال: إنَّ شيئاً من القرآن مخلوق؛ لأنَّ القرآن بكماله غير مخلوق»^(٤٢).

وقد ذهب هذا المذهب باحثون مثل أحمد أمين، ومحمود قاسم، وغبارة، فشكَّكوا بمدى اختلاف مقولة الأشعري في الكلام عن مقولة ابن حنبل، كما شكَّكوا في صحَّة نقل الشهرستاني للكلام

النفسي عن الأشعري^(٤٣).

ولكن اشتهار الكلام النفسي عن الأشعري، وعدم إنكار نسبته إليه في الماضي، ونقله عن تلاميذه^(٤٤) قرائن على انتساب النظرية إليه، ولعلَّه أنتجها في وقت متأخر عن تأليف اللمع والإبانة.

وعلى كلِّ حال، فالنظر كل النظر «إلى ما يقال لا إلى من يقول» فلنبداً بعرض هذه النظرية.

ب. تنقيح جهتي الاتفاق والاختلاف مع المعتزلة:

وأوَّل ما يقال: إنَّ الأشاعرة والمعتزلة يتفقون فيما دون الكلام النفسي، فهم يتفقون على أنَّ التلاوة والكتابة مخلوقة غير قديمة؛ فما يقوله المعتزلة يوافقهم عليه الأشاعرة، أمَّا ما يقوله الأشاعرة من الكلام النفسي فلا يقبله المعتزلة.

يقول الرازي: «واعلم أنَّ الجمهور منَّا يعتقدون أنَّ المعتزلة يوافقوننا في كونه - تعالى - متكلماً، ويخالفوننا في قدم الكلام. فأما نحن قد بيَّنا أنَّ الذي يقول المعتزلة،

(٤٣) راجع: م. ن، ص ٢٥٠.

(٤٤) راجع: م. ن، ص ٢٥٤.

(٤١) راجع: السبحاني، م. س، ٢: ٢٤٢.

(٤٢) راجع: موسى، م. س، ص ٢٥١.

فنحن نقول به من حيث المعنى، والذي نقول به، فهم لا يقولون به البتّة»^(٤٥).

ويقول العضدي -بعد ذكر نظرية المعتزلة: «وهذا لا ننكره، لكننا ثبت أمراً وراء ذلك، وهو المعنى القائم بال نفس، ونزعم أنّه غير العبارات»^(٤٦).

ج. شرح الكلام النفسي في نصوص الشهرستاني وغيره:

نقل أبو الفتح الشهرستاني في الملل والنحل عن الأشعري أنّ الكلام -عنده- «معنى قائم بال نفس سوى العبارة بل العبارة دلالة عليه من الإنسان، فالتكلم -عنده -من قام به الكلام، وعند المعتزلة من فعّل الكلام»^(٤٧). وقال قبل ذلك:

(٤٥) الطوسي، الخواجة نصير الدين (ت: ٥٦٧هـ): تلخيص المحصّل (المعروف بنقد المحصّل)، (وهو تلخيص نقدي لكتاب المحصّل لفخر الدين الرازي ت: ٦٠٦هـ)، ط ٢، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٥ هـ/ ١٩٨٥ م، ص ٣٠٧.

(٤٦) راجع: السبحاني، م. س، ٢: ٢٤٥.

(٤٧) الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت: ٥٤٨ هـ): الملل والنحل، صحّحه وعلّق عليه: أحمد فهمي محمد، ط ١، دار السرور، بيروت، ١٣٦٨ هـ/ ١٩٤٨ م، ١: ١٣١.

«والعبارات المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء ﷺ دلالات على الكلام الأزلي، والدلالة مخلوقة محدثة، والمدلول قديم أزلي، والفرق بين القراءة والمقروء والتلاوة والمتلو، كالفرق بين الذكر والمذكور: فالذكر محدث والمذكور قديم»^(٤٨).

وواضح أنّ الأشعري يفرّق بين المعنى القائم بال نفس وبين العبارة عن الكلام وهي الألفاظ؛ فحديث النفس وخواطرها هي الكلام، والعبارة عنه والدلالة عليه من الإنسان هي الكلام، فالكلام على الحقيقة نفسيّ عنده؛ «لأنّ العبارة تسمّى مجازاً إمّا بالمجاز وإمّا باشتراك اللفظ».

وواضح -أيضاً -أنّ شرح الكلام النفسيّ يبدأ على المستوى الإنساني للاستدلال به على دعوى كلام نفسيّ لله -تعالى -وفي هذا قياس مع فارق لا يُقاس سنوضحه في التعليق بعد نهاية النقطة.

وذكر الشهرستاني نفسه في نهاية الإقدام نصّاً -لعلّه الأشهر -في شرح الكلام النفسيّ نذكره بطريقة تسهّل بعض عباراته وهو: إنّ العاقل يجد في ذهنه كلاماً وقولاً، (٤٨) م. ن، ١: ١٣٠.

مراتب وجود القرآن عند علماء المسلمين..... المصباح

والشهرستاني في نصّه يذكر الخبر والاستخبار، والأمر والنهي، والوعد والوعيد؛ وهي اعتبارات ينقسم عليها الكلام الإلهي الواحد^(٥٠)، وليست أقساماً أو أنواعاً لهذا الكلام، بل هي خصائص نفسية للكلام؛ وكما أنّ العلم واحد ومتعلقاته كثيرة كالواجب والجائز والمستحيل، فكذلك الكلام^(٥١).

وقول الشهرستاني في النص الطويل السابق: «لأشخاص على تقدير وجودهم ومشاهدتهم ناظر إلى الخلاف في صحة خطاب المعدوم والغائب، فإذا كان كلام الله - تعالى - قديماً، فكيف يصح تعلّق الأمر والنهي والخبر بالمعدوم؟»

(٥٠) الشهرستاني: الملل والنحل، م. ن، ١: ١٣٠؛ ويقول العلامة الحليّ في ذلك: الكلام النفساني وهو عندهم معنى واحد ليس بأمر ولا نهي ولا خبر ولا غير ذلك من أساليب الكلام (العلامة الحليّ، جمال الدين الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر (ت: ٧٢٦هـ): كشف المراد من شرح تجريد الاعتقاد (للخواجة نصير الدين الطوسي، ت: ٦٧٢هـ)، تح. إبراهيم الموسوي الزنجاني، ط ١، الأعلمي، بيروت، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ٣١٥.

(٥١) موسى، م. ن، ص ٢٥٦.

تارةً إخباراً عن أمور رآها أو سمعها، وتارةً حديثاً مع نفسه بأمر أو نهي أو وعد أو وعيد لأشخاص على تقدير وجودهم ومشاهدتهم، وتارةً نطقاً، إمّا بجزم القول، وإمّا بتساؤل وتردّد، حتى أنّ الصانع يحدث نفسه بالغرض من صنعته، ويحدث الآلات والأدوات. ومن أنكر هذا فقد جحد الضرورة. وإنّما الشك في أنّ حديث النفس هذا هل هو العلم بنفسه أم الإرادة، والتقدير، والتفكير، والتصوير، والتدبير. والتمييز بينه وبين العلم هيّن، إذ العلم تبيّن محض تابع للمعلوم على ما هو به، وليس فيه إخبار ولا اقتضاء وطلب، ولا استفهام ولا دعاء ولا نداء، وهي أقسام معلومة وقضايا معقولة وراء التبيين والتمييز بينه وبين الإرادة أسهل وأهون؛ فإنّ الإرادة قصد إلى تخصيص الفعل ببعض الجائزات، ولا قصد في هذه القضايا ولا تخصيص. وأمّا التقدير والتفكير والتدبير فكلّ ذلك عبارات عن حديث النفس...^(٤٩).

(٤٩) الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام، تحق الفرد جيوم، القاهرة، لا ت، ص ٣٢١-٣٢٢.

وعند الأشعريّ أنّ المعدوم «مأمور بالأمر الأزليّ على تقدير الوجود»^(٥٢). والتقدير هنا يجوز -عنده- في حقّ الباري؛ لأنّ الأمر الأزليّ يتعلّق بالمأمور حين يصحّ التعلّق، وهو حال كونه حيّاً عاقلاً متمكّناً من الفعل^(٥٣). والأشعريّ -هنا- خالف ابن كُلاب في هذا الرأي الذي وافق فيه الأخير المعتزلة في عدم جواز خطاب المعدوم.

وواضح في النص محلّ الملاحظة أنّ الأشاعرة حاولوا تفريق الكلام النفسي عن العلم والإرادة؛ يقول العلامة الحليّ في كشف المراد: وقالت الأشاعرة: «إنّه متكلّم بمعنى أنّه قائم بذاته معنى غير العلم والإرادة وغيرهما من الصفات»^(٥٤). وقال الآمدي: «ذهب أهل الحق من الإسلاميين إلى كون الباري -تعالى- متكلّماً بكلامٍ قديمٍ أزليّ نفسانيّ، أحديّ الذات، ليس بحروف ولا أصوات، وهو -مع ذلك- ينقسم بانقسام المتعلّقات،

(٥٢) الشهرستاني: نهاية الإقدام، م. س، ٣٠٤.

(٥٣) موسى، م. س، ص: ٢٥٦ - ٢٥٧.

(٥٤) العلامة الحلي، م. س، ص ٣١٥.

مغاير للعلم والإرادة وغير ذلك من الصفات»^(٥٥). وقد أشرنا قريباً إلى قولهم إنّ كلامه واحد لا متعدد. وهذا معنى كونه أحديّ الذات، وهو ينقسم بانقسام المتعلّقات، لا أنّه ينقسم حقيقة إلى خبر، وأمر، نهي، ووعد، ووعيد، وهو يحافظ -مع هذا- عندهم على وحدته.

وقال النسفي (ت: ٥٣٧هـ) في عقيدته: «وهو متكلّم بكلام هو صفة له أزلية ليس من جنس الحروف والأصوات، وهو صفة منافية للسكوت والآفة، والله [تعالى] متكلّم بها أمرٌ ناهٍ مخبر».

وقال العضدي بعد ذكر قول المعتزلة في حدوث الألفاظ إنّنا «نثبت أمراً وراء ذلك، وهو المعنى القائم بالنفس، ونزعم أنّه غير العبارات؛ إذ قد تختلف العبارات بالأزمنة والأمكنة والأقوام، بل قد يُدُلُّ عليه بالإشارة والكتابة، كما يُدُلُّ عليه بالعبرة... وأنّه غير العلم؛ إذ قد يُخبر الرجل عمّا لا يعلمه بل هو يعلم خلافه أو شك فيه، وغير الإرادة؛ لأنّه قد يأمر بما لا يريد كالمختبر لعبده... [و] الأدلة

(٥٥) السبجاني، م. س، ٢: ٢٤٢.

البرهنة على أن الكلام النفسي ليس شيئاً غير العلم والإرادة.

وسنرد في الفرع اللاحق هذه الدرب في نقد الكلام النفسي، بعد الوقوف على آراء بعض المعتزلة والإمامية.

د. نقد المعتزلة والإمامية لنظرية الكلام النفسي:

رأى المعتزلة أن كلام الله - تعالى - هو الألفاظ والحروف المحدثه، ولا شيء وراءها من كلام نفسي مدعى. واستدلوا على ذلك بأدلة عقلية ونقلية.

فمن العقلية! أن الكلام لو كان قديماً للزم وجود الأمر والخبر في الأزل، والمأمور معدوم، فيكون الأمر والخبر سفهاً، والله منزّه عن ذلك. وقد أجاب الأشعري عن ذلك وقدمناه قريباً. ومنها: أن كلامه لو كان قديماً لتساوت نسبته في كل الأشياء، كما هو الحال في العلم والقدرة، ولما كان الحسن والقبح عند الأشاعرة بالشرع، وللزم تعلّق أمره ونهيه بالأفعال كلّها، فيكون كل فعل مأموراً به ومنهياً عنه؛ لأن أوامره ونواهيه من جملة كلامه، وهما قديمان كما يزعم الأشاعرة

الدالة على حدوث الألفاظ إنّما تفيدهم [المعتزلة] بالنسبة إلى الحنابلة، وأمّا بالنسبة إلينا فيكون نصّاً للدليل في غير محل النزاع. وأمّا ما دلّ على حدوث القرآن مطلقاً، فحيث يمكن حمله على حدوث الألفاظ، لا يكون لهم فيه حجة علينا، ولا يجدي عليهم إلا أن يُبرهنوا على عدم المعنى الزائد على العلم والإرادة^(٥٦).

وإذا كنّا قد أثبتنا القسم الأوّل من كلام العضدي، لجمال العبارة - مع أنّه تقدّم مثله تقريباً، فإنّ القسم الأخير من كلامه يرسم درباً منهجية للاستدلال بين الأطراف، ويبيّن أيّ دليل يُلزم الأشاعرة وأيّ دليل لا يُلزمهم ولا يحججهم؛ فإذا استدللّ المعتزلي على حدوث الألفاظ كان موافقاً في هذا للأشعري ملزماً بالحجة الحنبليّ القائل بقدمها، وإذا استدللّ على مطلق الحدوث صُرف إلى حدوث الألفاظ؛ فلا بدّ - إذن - من صرف قياد الاستدلال إلى

(٥٦) السبحاني، م. س، ٢: ٢٤٣ - ٢٤٤ (نقله عن العضدي، عبد الرحمن بن أحمد القاضي الإيجي (ت: ٧٥٦ هـ): المواقف في علم الكلام، ط ٢، عالم الكتب، بيروت، لا ت، ص ٢٩٤.

وأتباعهم. والقديم تستوي نسبته إلى جميع ما يتعلّق به، ولا يحتاج تعلّقه بالأشياء إلى سبب، وإلّا لكان حادثاً.

ومن النقليّة آيات، كقوله -تعالى:

﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ ﴾

[سورة الأنبياء: ٢] وقوله: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ ﴾ [سورة الشعراء:

٥] إلى غير ذلك من الأدلة، أو محاولات الأدلة التي تختلف في مدى سلامتها ووجاهتها^(٥٧).

أمّا الإمامية الاثنا عشرية فقد نفوا الكلام النفسي ووافقوا المعتزلة في ذلك، لكنهم لم يدخلوا حرب التنوير بالتكفير، مثلما فعل غيرهم، بل لزموا على سلامة من رأيهم وصايا أئمتهم التي لاحظنا شيئاً منها في نقطة دعوى أنّ القرآن غير مخلوق.

قال نصير الدين الطوسي: «وعُمومية قدرته تدل على ثبوت الكلام، والنفساني منه غير معقول». وقد أثبت الطوسي الكلام لله بالمعنى الأول الذي تقوله

(٥٧) راجع في هذه الأدلة: الحسن، هاشم معروف: الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، ط٣، دار الملاك، بيروت، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص ٢٠٤-٢٠٥.

المعتزلة؛ وهو أنّه أوجد حروفاً وأصواتاً في أجسام دالّة على المراد، واستدلّ على ذلك بكونه -تعالى- قادراً على كلّ مقدور، ولا شكّ في إمكان خلق أصوات في أجسام تدلّ على المراد.

ومعنى كون ما قالته الأشاعرة من الكلام النفسي غير معقول أنّه لا يُعقل ثبوت معنى غير العلم ليس بأمر ولا نهي ولا خبر ولا استخبار، وهو قديم، والتصديق موقوف على التصوّر^(٥٨).

والعبارة الأخيرة للحليّ في شرح كلام نصير الدين الطوسي تشير إلى ما سيأتي مع السبحاني من أنّ تفريقهم بين العلم والكلام عائد إلى أخذهم العلم بمعنى التصديق دون ما هو الأعم من التصديق والتصوّر.

ويعلّق نصير الدين على الرازي في دعواه استحالة حدوث الكلام (وقوله للرازي، وأقول لنصير الدين): «وقوله: «هذا الكلام لو كان مُحَدَّثاً، لكان إمّا أن يحدث في ذات الله -تعالى-، وهو محال» -

أقول: هذا هو مذهب الكرامية، وهم (٥٨) راجع: م. ن، ص ٥.

مراتب وجود القرآن عند علماء المسلمين..... **التصنيف**

يجوزون كون الله محلاً للحوادث، قوله: «وإمّا أن لا يحدث، وهو محال؛ لأنّ كونه- تعالى - متكلّماً من صفاته، وصفة الشيء يستحيل أن لا تكون حاصلةً فيه»، أقول: المتكلّم صفته، والكلام يجوز أن يكون في غيره. كما أنّ الخالق والرازق صفته والخلق والرزق لا يجب أن يكون موجوداً فيه^(٥٩).

فقيام المبدأ بالفاعل ليس قسمًا واحداً وهو القسم الحلوي، بل له أقسام، ومنه ما هو صدوري كالقتل والضرب في القاتل والضارب، ومنه حلوي كالعلم والقدرة في العالم والقادر، والتكلّم من الأول. بل ربّما يصح الإطلاق، وإن لم يكن المبدأ قائماً بالفاعل أبداً...، بل يكفي نوع من ملابسة المبدأ، كالتّمّار واللّبّان لبائعي التمر واللبن^(٦٠).

وقد حاول السبحاني (المعاصر) التمشي مع طريقة العضدي السالفة في

بحث المسألة، وطرح دخول البيوت من أبوابها بإثبات أنّ الكلام النفسي لا يختلف عن العلم والإرادة، فعرض بعض أدلّتهم وناقشها^(٦١):

- الأول: أنّ الكلام النفسي غير العلم (في الجُمْل الخبرية)؛ لأنّ الرجل قد يخبر عمّا لا يعلمه أو يشك فيه... ويلاحظ عليه: أنّ المراد من رجوع كل ما في الذهن في ظرف الإخبار إلى العلم الجامع بين التّصوّر والتصديق؛ فالمخبر الشاك أو العالم بالخلاف يتصوّر الموضوع والمحمول والنسبة الحكميّة ثمّ يخبر، فما في ذهنه من هذه التّصوّرات الثلاثة لا يخرج عن إطار العلم، وهو التّصور. ومنشأ الاشتباه هو تفسير العلم بالتصديق فقط.

- الثاني: أنّ الكلام النفسي في ظرف الإنشاء غير الإرادة والكرهية؛ لأنّه قد يأمر الرجل بما لا يريده في الأوامر

(٦١) نقلنا أربع أدلة مع مناقشتها من السبحاني مع تلخيص يناسب المقام حيث يمكن، واسبدلنا الدليل الخامس بالرابع لسبق عرض الرابع في مناقشة والخواجة الطوسي للرازي وبعدها (م. ن، ٢: ٢٤٦-٢٥١).

(٥٩) الخواجة الطوسي، تلخيص المحصّل، م. س، ص ٣٠٩.

(٦٠) السبحاني، م. س، ٢: ٢٥٠-٢٥٢ (أورد هذا التحليل في تعليقه على نصّ للفضل بن روزبهان في عرض دليل الأشاعرة الرابع ونقده).

الاختبارية. وقد أجاب السبحانيُّ
بجوابين:

الجواب الأول: إنَّ الأوامر الاختبارية
على قسمين: قسم تتعلَّق فيه الإرادة بنفس
المقدمة دون نفس الفعل، كما في أمره -
تعالى - بذبح إسماعيل (عليه السلام) ولأجل ذلك
وفي إبراهيم (عليه السلام) بالمقدمات نودي ﴿أَن
يَتَّبِعْهُمُ ۖ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّيَا﴾ [سورة
الصافات: ١٠٤ - ١٠٥].

وقسم تتعلَّق الإرادة فيه بالمقدمة؛
وغاية الأمر أنَّ الداعي إلى الأمر مصلحة
مرتَّبة على نفس القيام بالفعل، لا على
نفس الفعل، كما لو أمر الأمير أحد
وزرائه في الملأ العام بإحضار الماء لتفهم
الحاضرين بأنَّه مطيع غير متمرد. وفي هذه
الحالة - كالحالة السابقة - لا يخلو المقام
عن إرادة، فلا يصحَّ أنَّه لا توجد إرادة في
الأوامر الاختبارية.

الجواب الثاني: الظاهر أنَّ النافي لوقوع
الإرادة في الأوامر الامتحانية الاختبارية
تصور أنَّ إرادة الأمر تتعلَّق بفعل غير
المأمور؛ ولذلك حكم بأنَّه لا إرادة متعلِّقة
بفعل الغير في الأوامر الامتحانية، بل فيها

شيء غير الإرادة، ربَّما سمِّي الطلب (في
مقابل الإرادة) أو الكلام النفسي ولكن
الحق غير ذلك... وما اشتهر من "تعلُّق
إرادة الأمر والناهي بفعل المأمور به"
كلام صوري؛ إذ هي لا تتعلَّق إلاَّ بالفعل
الاختياري، وليس فعل الغير من الأفعال
الاختبارية، فلا محيص من القول بأنَّ
إرادة الأمر متعلِّقة بفعل نفسه وهو الأمر
والنهْي. وإن شئت قلت: إنشاء البعث إلى
الفعل أو الزجر عنه. نعم، الغاية من ذلك
هي انبعاث المأمور إلى ما بُعث إليه، أو
انزجاره عمَّا زُجر عنه؛ لعلم المكلف المأمور
أنَّ في ذلك مضاعفات دنيوية وأخروية...
وباختصار: إنَّ فعل الغير لما كان
خارجاً عن اختيار الأمر لا تتعلَّق به
الإرادة. ولا يُعترض على هذا الكلام بأنَّ
الله أمر قاهر وإرادته نافذة ﴿إِن كُفَّ
مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَاقِيَ الرَّحْمَنُ
عَبْدًا﴾ [سورة مريم: ٩٣]؛ لأنَّ المقصود
هو الإرادة التشريعية لا الإرادة التكوينية
القاهرة المخرجة للعباد عن وصف
الاختيار.

- الثالث: إنَّ العصاة مكلفون بما كُلف

به أهل الطاعة والإيمان بنص القرآن الكريم، ولو قلنا إنه تكليفهم بذلك نشأ من إرادة الله - تعالى - للزم التفكيك بين الإرادة والمراد، فلا بد أن يكون هناك منشأ آخر للتكليف وهو الكلام نفسه أو الطلب.

وقد أجابت المعتزلة بأن أرادته - سبحانه - لو تعلقت بفعل نفسه فلا تنفك عن المراد، وأما إذا تعلقت بفعل الغير، فيما أئها تعلقت بالفعل الاختياري الصادر من العبد عن حرية واختيار، فلا محالة يكون الفعل مسبوقاً باختيار العبد، فإن أراد العبد واختار يتحقق الفعل، وإن لم يرد، فلا يتحقق.

وفي النفس من إيهام كلام المعتزلة إطلاق الاختيار شيء، فلا تقييد لإرادة الله وقدرته باختيار العبد، والله لا يقيد قدرته شيء، ولا حتى قضاء قضاه، فهو لم يفرغ من الأمر مثلما قالت اليهود، ويده ليست مغلوله، ولكنه يريد الفعل معلقاً على اختيار العبد، فلا تتم علة الفعل إلا باختيار الأخير^(٦٢).

(٦٢) هذه الفقرة تعليق منّا على كلام المعتزلة.

ولعلّه لهذا، ذهب السبحاني إلى جواب آخر هو أن المستدل خلط بين الإرادتين التكوينية والتشريعية، وأعاد ما مرّ في مناقشة الدليل الثاني، وهو أن الإرادة التشريعية تتعلّق بنفس إنشائه وبعثه، وجعله الداعي للانبعاث والانزجار، وهذا غير متخلّف عن الإرادة، وأما فعل الغير - أي: انبعاث العبد وانتهائه، فهو من غايات الإرادة التقنينية التشريعية لا من متعلقاتها.

- الرابع: إن لفظ الكلام يُطلق على النفسي كما يُطلق على اللفظي؛ قال - سبحانه: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة الملك: ١٣]. والإطلاق صحيح لكن الكلام في كونه حقيقة أو مجازاً، والقول في الآية أصله في التكلم باللسان.

هل توجد مرتبة وجود للقرآن هي كلامه النفسي أو علمه؟:

وبعد، فلا دليل ينهض على نظرية الأشاعرة في الكلام النفسي، وهو ليس شيئاً غير العلم والإرادة، والطلب الذي خصّوه بالكلام الانشائي ليس شيئاً غير الإرادة، وهو متحدٌ معها. وهناك ملاحظة تلحّ علينا

قبل ختام البحث في الكلام النفسي: وهي أنَّ علمَ الكلام الأشعريِّ وصف حديث النفس الموجود عند الانسان بوجودات ذهنيَّة ومفاهيم وسمَّاه كلاماً نفسياً، ثمَّ قاسه على الله - سبحانه - غير المحدود التي لا تحيط به المفاهيم ومنها حدود المفاهيم، وأنَّ ردود المتكلمين لم تُركِّز على هذه النقطة في حدود ما اطلعنا عليه؛ فليس علم الله - سبحانه - من سنخ الوجودات الذهنيَّة، ونحن المحدودين لا نملك آلة مسانخة تصلح لقياس علمه غير المحدود.

ثمَّ إنَّ للحكماء نظرية في كلامه - سبحانه - لا تجعل القرآن المُحدث وحده - من كلامه، بل يدخل في كلامه مجموع العالم الإمكانى، ونحن جميعاً كلمات التكوين الإلهية الحادثة.

وإذا كان كذلك، فنحن نستوي مع القرآن في كوننا جميعاً كلمات التكوين ونتيجة البحث في الكلام النفسي وفي خلق القرآن تثبتان أنَّه لا توجد مرتبة وجود للقرآن هي الكلام النفسي، أو هي كلامه الذي هو علمه؛ فالكلام النفسي المدَّعى ليس شيئاً وراء العلم والإرادة. ثمَّ إنَّ هذا

الوصف والتركيب محاولة لإثبات صفة أزلية بإزاء العلم والإرادة، وهو لم يثبت، فلا كلام على الحقيقة إلاَّ الكلام الذي هو فعل الله، والذي هو صفة منتزعة في مقام فعله.

وصحيح أنَّ القرآن منزلٌ بعلم الله ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [سورة هود: ١٤] وصادر عن هذا السبب الغيبي الذي هو علم الله، وهو من شآبيب رحمة الله، وليس عين العلم الذي هو الصفة الذاتية التي هي عين الذات على قول الإمامية. وصحيح أنَّ الله العالم بكلِّ شيء علماً أزلياً بالقرآن كلامه وكتابه، ولكنه عالم بي وبك وبالبحر والمدر، فلا يعزب عن علمه شيء، ولا يصير القرآن المعلوم عين العلم وعين العالم.

وعلى الرغم من غرابة دعوى أنَّ كلامه علمه، فإنَّ في ظلامها بقعة ضوء يمكن بتركيزها أن نعدِّل المقال إلى وجودٍ حقيقي للقرآن في مخزن علم الله وقضائه واللوح الملوكوتي الذي لديه وهو اللوح المحفوظ. وهو شروع في البحث في رتبة وجود القرآن في اللوح المحفوظ.